

ملكة السرد الأنثوي وصياغة الزمن الروائي عند الروائية العربية "رضوى عاشور"

أ.سمية قندوزي
جامعة الجزائر -2-

اكتسحت الرواية المشهد الثقافي، وأغنته بانفتاحها على مختلف أشكال التعبير الحدائثية، مشكلة حضورا أقوى مما كانت عليه من قبل، خاصة بعدما دخل العنصر الأنثوي في المجال السردى، وأثبت حضوره الفعلي، بوصفه ذات فعالة في الخطاب الروائي .

هذا التحول الأنثوي أعاد تشكيل الواقع في سياق نصي مفارق جمع بين المتناقضات والمؤتلفات...نزعت فيه الروائيات إلى حرية تصوير العالم على طريقتهن وبالتالي صياغة متخيل مختلف توجهه مرجعيات مختلفة(1)

ولا يخفى على أحد أن الإبداع والكتابة يولدان الحياة من ظلمة الفقد والغياب، والرواية تحقق للمرأة المبدعة شيئا من تشكيل ذاتها الحقيقية داخل فعل الكتابة، بينما الرجل لا يرى المرأة فكرا واعيا بل يراها جسدا ناميا (2)، لذا كان نص المرأة ذاكرة تنبعث من تحت آثار الشمس، وركام التاريخ، والإلغاء الحضاري، ولا يتأتى لها ذلك إلا بترويض أحصنة اللغة، وركوبها، ثم تعرية الوجه الذكوري، الذي سلب منها هذه اللغة، وحين تفرض المرأة ذاتها، تكون بذلك قد فرضت وجهها المخبوء، تحت الكلمات، ووراء المجازات .

لقد غدت الكتابة عند المرأة فعلا وخلقا و ولادة، وفي الوقت نفسه تواصلًا وتجاوزًا، وعبورًا، لكن الذي تكتبه المرأة لم يكن بالضرورة _ احتواءً للتمام والجاهز والمتيسر، بل كان انفتاحًا على القصي والهارب والآتي .

بلغت المراوحة الروائية من السعة والتفاوت مبلغا كبيرا في الوطن العربي، من خلال عدة أسماء نسائية مثل : نوال السعداوي، سحر خليفة، زهور ونيسي، ليلى الأطرش، رضوى عاشور، لطيفة

الزيات، آمال مختار، أحلام مستغانمي، هدى بركات(3)...وغيرهن، ولم تكن إبداعاتهن الروائية بعيدة عن التحولات التي عرفتتها الرواية العربية في الآونة الأخيرة، فقد خطت الخطوات ذاتها مما حقق تراكما أدبيا غزيرا، أضحى فضاء خصبا لكثير من الدراسات النقدية .

مما تقدم يتضح لنا أن هدفنا الأساسي هو الإقتراب من روح الإبداع الروائي بشكل عام، ومن عقب النص الروائي الأنثوي بشكل خاص، في محاولة للوقوف على المفارقات الزمنية في النص الروائي الأنثوي من خلال رواية " الطنطورية " لرضوى عاشور(4) .

التي تعكس التنقلات الزمنية بين الماضي والحاضر والمستقبل بسلاسة، مرتكزة على الذاكرة الكامنة خلف الوعي واللاوعي، وخلف الفرح والحزن، والمفاجآت، والبيدهيات، وإن كان المكان يعطيك الوجود والكيان لتنتقل، فإن الزمان هو الحسيب والرقيب، يتعامل معك بالحساب إذ ليس في قاموسه إلا مصطلح الفرص (5)، فالأحداث تسير في زمن، والشخصيات تتحرك في زمن، والفعل يقع في زمن، ولا نص دون زمن(6).

إن الزمن في رواية " الطنطورية " (7) يقوم بألعاب خفة، لينسل منك أو ليسابك، يستعين بالخيال ليستدعي أزمنة ولت، وينادي أزمنة قادمة، يهرب منك للحظات رديئة، ويقيم معك في لحظات جميلة، لهذا السبب تتمدد اللحظة، لتشمل مساحات كبيرة من الوقت، أو تنحصر سنوات لتصبح لحظة عابرة، فنقول بكلمة ما يحتاج صفحات، أو نفرّد سطور لقول ما يختصره سطر.

ففي " الطنطورية " السرد مزامن للحدث، والإسترجاعاتوالإستباقات المتناثرة في المبنى الحكائي لا تتعلق بحياة الشخصيات فقط، وإنما بماضي الوطن العربي ومستقبله، وارتباط كل ذلك بما يحدث من تحولات عالمية، وسياسة الدول المعادية، الناتجة عن مصالحها، وهذا يفرض على تقنيات الزمن السردية، ومن ضمنها "الإستباق" و"الإسترجاع"، أن تكون غير محصورة بشخص واحد، ولا بمكان واحد، ولا بزمن واحد...لذا سنلاحظ تشظي الزمن في هذه الرواية، التي تدور أحداثها لتحكي قصة امرأة فلسطينية تطرد من

قريتها، على يد القوات اليهودية، عام 1948م وعمرها خمسة عشر سنة، لتتزوج بعد ذلك وتعيش في لبنان وتتجب ثلاثة أطفال، وتقوم بعد ذلك بحكاية قصة بلادها المفقودة بناء على طلب ابنها " حسن " **"... احك الحكاية، اكتب ما رأيته وعشته وسمعته، وما تفكرين فيه، وإن صعبت الكتابة، احك شفاهة، وسجلي الكلام، وبعدها نقله على الورق، هذا مهم يا أمي، أهم مما تتخيلين ..."** (8).

إن القارئ لرواية " الطنطورية "، لا يمكن أن يربط المقاطع السردية، وفقا للإنتقال الزمني القائم على التدرج والنظام، لأنه فقد توازنه الخطي وأصبح يتماشى مع إمكانية التبدل والتحول، هذا التشويش الزمني الذي لحق ببنية الرواية راجع لإستعانة الروائية بجملة من التقنيات السردية، ولا يمكننا فهم التسلسل الزمني إلا بدراسة " زمن القصة " و "زمن الخطاب " .

فرق "تودوروف " بين زمن القصة و الخطاب عندما وصف القصة " بالمتعددة الأبعاد " (9)، حيث يمكن أن تجري أحداث كثيرة في وقت واحد، وهو زمن صرفي باعتبار قابليته لأن يتخذ أنحاء عديدة (10)، في حين أن زمن الخطاب هو زمن خطي، يعيد ترتيب المادة الحكائية أو الأحداث تبعا لمنطق العمل الإبداعي، ضمن حدود إشارات زمنية تاريخية، محدودة بالسنوات والشهور والأيام والفصول، وهو ما يعطي سياقاً نووياً جديداً من خلال توظيف الزمن .

إن حديثنا عن الترتيب الزمني في النص السردى، ومقارنة ترتيب ورود الأحداث في النص السردى (زمن الخطاب، بترتيب ورود هذه الأحداث في الحكاية (زمن القصة) ينتج عنه ثلاثة أنماط :

أ - التوازن المثالي حيث السرد يوازي الحكاية .

ب - القلب بداية السرد من نهاية الحكاية .

ج - الإنطلاق من منتصف الحكاية .

ويمكننا أن نحصر زمن الخطاب الخارجى في " شعرية تودوروف " في القضايا الزمنية (11)، التالية :

1- زمن الحكاية : وهو عالم متخيل يخص زمن العالم المتحدث عنه . وتتفاوت النصوص السردية من حيث الزمن الذي تستغرقه الأحداث،

فقد يكون دقائق في بعض الأفاصيص، وقد يكون يوما واحدا من حياة الشخصية الرئيسية كما في رواية "أوليس" للكاتب الإيرلندي "جويس"، وقد يكون سنين عديدة، أو أجيالا كما في ثلاثية "نجيب محفوظ"، وربما كانت الأجناس السردية الوجيهة كالأخبار والنوادر والأفاصيص أميل إلى تقليص الزمن، بينما تهتم أجناس سردية أخرى بمسارات حديثة تمتد شهورا أو سنوات شأن الرواية والرحلة والسيرة الذاتية (12).

2- زمن الكتابة: وهو زمن مرتبط بسيرورة التلفظ الحاضر في النص . ويمكن النظر إلى زمن الكتابة في مستويين : عصر الكاتب وزمن الكتابة الفعلي، ففي المستوى الأول يكون النظر في العصر الذي يؤطر حياة الكاتب، في مختلف جوانبه الحضارية، وتأثيرها في مجمل إنتاج كاتب أو جماعة أدبية، وفي المستوى الثاني يتصل المفهوم بمرحلة محددة في حياة الكاتب وبالفترة التي أنتج فيها النص تحديدا (13) .

3- زمن القراءة: وهو ذلك الزمن الضروري لقراءة النص، وهو زمن غير خاضع للدقة، لإستحالة الفصل فيه، يختلف باختلاف ثقافات القراء، وباختلاف الزمن الذي يمارسون فيه القراءة (14).

ويستخدم جيرار جينات مصطلحي (زمن القصة) و (زمن الحكوي)، فهناك زمن الشيء المحكي و زمن الحكوي (15) .
ويبحث الدكتور "سعيد يقطين" في كتابه (تحليل الخطاب الروائي)، مفهوم الزمن وتقسيماته، في التصور النقدي العربي، كما هو موضح من خلال الجدول التالي (16) :

زمن النص	زمن الخطاب	زمن القصة
----------	------------	-----------

- يرتبط بزمن القراءة	- زمن السرد - زمن الحكيم - زمن المبنى الحكائي - زمن القول	- زمن الحكاية - زمن الشيء المروي - زمن المتن الحكائي - زمن الأحداث أو الوقائع
----------------------	--	--

أ- زمن القصة : تعد الحكاية المنظومة الأولية في النص، بما تملكه من وقائع وأحداث، لها زمنها الخاص، ربما يكون زمنا للأحداث الواقعية أو الخيالية، أو يكون ماضيا قريبا أو بعيدا، فالرواية تروي أحداثا يفترض أنها وقعت - أو وقعت روائيا على الأقل - وإن اعتبرنا الحكاية مجموعة الأحداث في العمل الروائي، فإنه أيا كان الترتيب الأصلي للأحداث في داخل العمل الأدبي، وبالرغم من التسلسل الفعلي لتقديمها للقارئ فإنه يمكن رواية القصة عمليا وفقا للتسلسل الزمني والترتيب السببي للوقائع (17).

وفي رواية " الطنطورية " لرضوى عاشور، نعرف أن " رقية " بطلة القصة، تكتب - قصة حياتها - بناء على طلب ابنها "حسن"، يمتد فعل الكتابة طوال سنوات دراسة ابنتها " مريم " الطب في جامعة الإسكندرية، أي أن زمن الكتابة الداخلي هو سبع سنوات أي في عام 1994 م "...بعد سنوات عاد حسن للإلحاح علي . ثم فاجأني ذات مساء بدفتر كبير، كتب علي غلافه عبارة " الطنطورية " ...كان الدفتر ينتظر، والعنوان يراود، والصفحات البيضاء توسوس، أليست الطنطورية غواية ؟ ...ذات صباح أمسكت بالقلم فإذا بي أكتب عن الشاب الذي طرحه البحر علي . ممتع ومثير أن أستحضر علي الورق أمي وأبي وبحر البلد وعرسا من الزمن . ثم أتوغل في شجون الذاكرة والكلام، أقول ووطنني حسن، وها أنا بعد كتابة دفترين وعشرات الصفحات، أعجز عن مواصلة الكلام، كيف أحكي الشهور الأربعة الثانية ؟ ... " (18).

ب - زمن الخطاب : الخطاب هو المنظومة النصية الأساسية والنهائية في النص الروائي، باعتباره الحاضر التخيلي، وهو الذي يقدم المنظومة الحكائية، وغيرها من المنظومات النصية للقارئ عبر السارد (الراوي)، حيث يقف القارئ أمامه وجها لوجه، يحاوره ويقوم بالتأويل، ويتجلى زمن الخطاب نتيجة لتخقيب الحكاية (القصة)، وما تخقيبها سوى الانتقال بالمادة الحكائية من الواقع إلى الفن، حيث يتم ترهين زمن الحكاية في الزمن الحاضر التخيلي السردى (زمن الخطاب)، ويقول الدكتور " سعيد يقطين " : "...في سلب زمن القصة خطيته وكونه مادة خاما، لذلك فإننا في انتقالنا من زمن القصة إلى زمن الخطاب نجدنا ننتقل من التجربة الواقعية ذهنيا، (ذات الطابع المشترك) إلى التجربة الذاتية (ذات الكاتب)، وهي تسعى لتجسيد نظرة خاصة للزمن، يبرز من خلالها بعد " تخقيب " الواقع الذهني لتتجلى واقعا نفسيا مدركا من خلال تعامل الذات مع الزمن..."(19).

إن زمن رواية " الطنطورية " ينطلق حقيقة من تلك اللحظة التي بدأت فيها رضوى عاشور روايتها أي عام 1947 م، لحظة أن خفق قلب بطلة روايتها " رقية " بالحب لأول مرة، وتمضي الحكاية في زمن خطي وتستمر إلى بداية هذا القرن الحادي والعشرين، وتتعدد محطات حكاية " رقية " وتتداخل الأزمنة والأمكنة، مع رقية الطفلة، والشابة، والجدة، فالرواية تحفر في منجم حافل بعروق الحكايات، تسرد من هنا وهناك، " ...خرج من البحر، أي والله، خرج من البحر، كأنه منه وطرحته الأمواج، لم تحمله كالمسكة أفقيا، انشقت عنه . تابعته وهو يمشي بساقين مشدودتين باتجاه الشاطئ، ينتزع قدميه من الرمل، ويعيد غرسهما فيه، ويقترّب، تلتصق حبات الماء على وجهه وكتفيه، شعر رأسه وصدرة وذراعيه، استقر لامعا في البلب...أنا التي بادرت بالكلام، سألته فأجاب : اسمي يحي من عين غزال..."(20).

وينقسم زمن الخطاب إلى الأزمنة التالية :

أ - الزمن التاريخي : ويشمل هذا الزمن الإطار العام الذي وقعت فيه الأحداث التاريخية في الرواية(21)، تلك المتعلقة بالنكبة في فلسطين

وما تلاها من وقائع ومجازر حتى عام 2000، ومشاهد التهجير، والإجتياح الإسرائيلي الأكبر، والحصار والمظاهرات، ودخول إسرائيل إلى فلسطين، وسقوط حيفا، وزمن الحماية الإنجليزية، وانتهاء الإنتداب، ومواجهة العرب لإسرائيل، والعدوان الثلاثي على مصر... إلخ .

ففي الفصل السابع الذي تعوننه رضوى عاشور بـ " حين احتلوا البلد " يحضر التاريخ، ويترك للقارئ مساحة للوجع في استحضار أحداث النكبة " ...ناجي العلي من مواليد قرية الشجر بالجليل الأعلى في فلسطين، لجأ أهله إلى جنوب لبنان أيام النكبة عام 1948، عاش مع أهله في مخيم عين الحلوة، وبقي مرتبطا بالمخيم حتى بعد أن كبر، لم ينس أبدا أن أرضه سرقت، وأنه طرد بغير وجه حق من بلده فاضطر للعيش لاجئا في مخيم من مخيمات لبنان ... " (22).

وتروي رقية ما حصل في مشاهد التهجير فتقول : " ..كان حسن يجمع شهادات أهالي قرى الساحل الفلسطيني عن التهجير في عام 1948 م ... " (23). وبذلك فالحركات الزمنية الروائية في بنيتها الداخلية، قد تتداخل مع بنية زمنية خارجية، وتتبادل معها العلاقات (24).

وتبدع رضوى عاشور في رسم تفاصيل تلك المشاهد، وتلونها بالوجع وكأنها كانت أحد شهود تلك المأساة، إذ تتبع خطوات من سارو في دروب شائكة ومن سقطوا في الصحاري، والبحار ومن لم يتحملوا إهمال المخيمات، فماتوا وهم في عمر الرضاعة، تحكي " رقية " بطلة الرواية يوميات حياة نابضة بالمقاومة، والإرادة لمواصلة الحياة، بالرغم من الخسارات المفجعة، ومشاهد دماء الأب والأخوين المقتولين، بأيدي الصهاينة " ...أبي وأخوأيالإنان قتلوا . رأيتهم بعيني على الكوم، كانوا بين مائة أو ربما مائتي قتيل، ولكنهم كانوا على طرف الكوم ... " (25).

وتحضر التواريخ في الرواية بشكل حقيقي جدا، فحين يغيب التاريخ تكتفي رضوى بذكر اسم الحادثة، لنعرف في أي عام نحن وفي أي شهر (كمجزرة صبرا وشتيلا).

و قد جمعت الكاتبة في هذا الزمن بين الحدث التاريخي الذي يقوم على الخيال...وحدث تاريخي يزعم له أنه يقوم على الحقيقة الزمنية (26).

ب - الزمن الحاضر : وهو الزمن الذي يجسد إشكالية " رقية " في الرواية حين نجدها تحكي لأولادها عن نهفات جدتهم وجدهم، فيعلق الأطفال على تلك الحادثة بلغة العصر "...واضح أن تيتا الكبيرة، كانت عنصرية ... " (27) وهذه لا تختلف عن جملتها "...كنا في الإسكندرية، لماذا أستبق الأحداث، لم أنتهي بعد من حكاية أبو ظبي مازلنا هنا..." (28) .

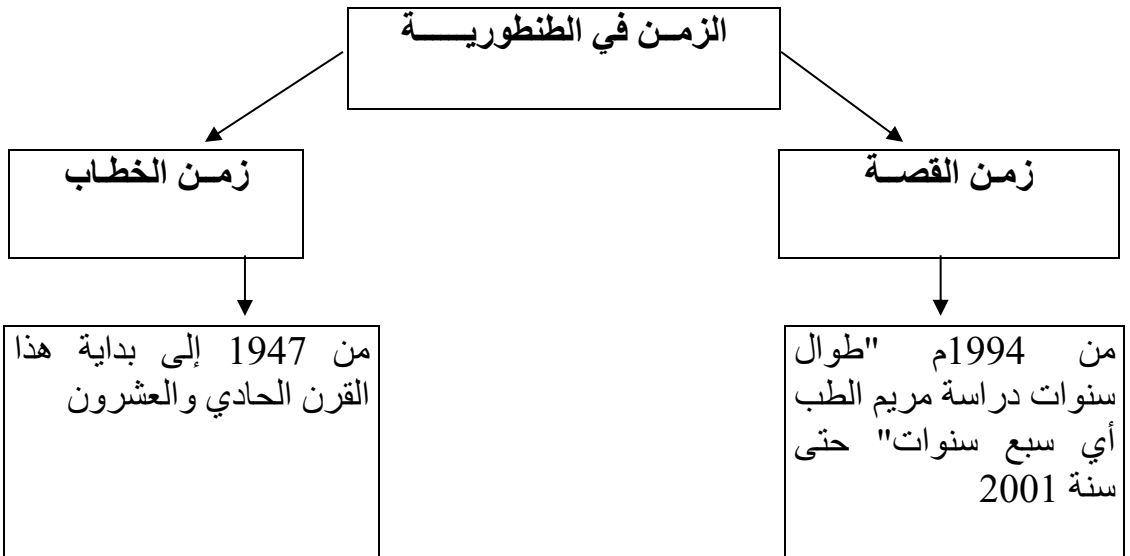
ج - الزمن الماضي : وهو زمن وقوع الأحداث التي جرت في الماضي، وقد جاء عن طريق الإسترجاع كصورة دلالية مؤثرة في النص(29)، حيث أبرزت الكاتبة من خلالها مدى تعلق " رقية " بالماضي المتسم بالوطنية والإخلاص لدرجة تحكمه في بنية النص مثل قول الراوي : " ...ماذا حدث في حيفا يوم كذا ؟، وكم قتيل راح من برميل البارود الذي دحرجه المستوطنون على جبل الكرمل في شارع كذا؟، وأي قرية داهموا في الليل بيوتهم وسكبوا الكيروسين على مونتها من طحين وعدس وزيت وزيتون، وأطلقوا الرشاشات على أهلها، ولكنني كباقي صبايا البلد كنت أعرف أن الوضع خطير..." (30).

د - زمن الحلم : وهذا الزمن قد يصل ساعة أو أكثر أو أقل من زمن القصة ولا تقاس أهميته اعتبارا لعدد تواتره في النص، وإنما يتجلى دوره في شعور البطل عند تعامله مع انفعالاته ومشاعره، "...ليلة الأربعاء على الخميس، حلمت أنني أزور المدينة المنورة، ولما حكيت الحلم لأمي وكانت منهمة في خبيزها المعتاد يوم الخميس، أضاء وجهها وأكدت أنها رؤيا وليست منام (سينهزم أولاد الحرام وتصبح البلد كلها كالمدينة المنورة)..." (31).

ه - الزمن الطبيعي : وهو الزمن الذي تذكر فيه المقاييس الزمنية المعروفة، والمستمدة من العالم الخارجي(32)، لذلك فهي تحرص على توضيح حدود بنية الزمن بالإشارات الزمنية : كالشهر والأسبوع

واليوم والساعة والدقيقة، ويفيد تكرار مثل هذه الإشارات للدلالة على حتمية الحدث في الرواية، حتى تتداخل مع أفكار وأحداث وأبعاد النص الدلالي لتحديد معالم السرد الروائي " ... أنتظر مكالمة الأولاد، أنتظر نشرة أخبار السادسة صباحا، ونشرة الحادية عشرة ليلا، ثم نشرة السادسة في الصباح الذي يليه، تمر الساعات بطيئة وموحشة، كأنني أتحرك في أرجاء مقبرة، ثم يأتي الصيف أو للدقة يأتي الشهر المعين، في الصيف تدب الحياة في البيت ... " (33). والنص مكثف بمثل هذه الإشارات الزمنية مثل قول الراوي : " ... بعد شهر العطلة الذي قد يزيد أسبوعا أو يختصر، لسبب أو لآخر أودع الأولاد ... " (34) .

ولمزيد من التوضيح يمكننا أن نمثل الزمن في " الطنطورية " من خلال الرسم البياني التالي :



- آليات الزمن السردي في رواية " الطنطورية " للروائية رضوى

عاشور:

تلجأ الرواية في كثير من الأحيان إلى كسر التتابع الطبيعي للأحداث، كما هو الحال بالنسبة لرواية " الطنطورية "، مما يؤدي إلى تغيير مجرى السرد، إما بالرجوع إلى الوراء، لإسترجاع أحداث وقعت في الماضي أو على العكس من ذلك تفتز لإستشرافها هو واقع أو متوقع من الأحداث، وسنعرض فيما يأتي لهذه الجوانب :

1 - الإرتداد (الإسترجاع) : يعد من أكثر التقنيات الزمنية السردية حضورا وتجليا في النص الروائي، ومن خلاله يتحايل الراوي على تسلسل الزمن السردي، إذ ينقطع زمن السرد الحاضر، ويستدعي الماضي بجميع مراحلها، ويوظفه في الحاضر السردي، فيصبح جزءا لا يتجزأ من نسيجه .

والإسترجاع هو مفارقة زمنية تعيدنا للماضي، بالنسبة للحظة الراهنة، استعادة للواقع، أو وقائع حدثت قبل اللحظة الراهنة، (أواللحظة التي يتوقف فيها القص الزمني ليدع النطاق لعملية الإسترجاع).

ولتقنية الاسترجاع أو الإستذكار فسحة معينة، وكذلك بعد معين (35)، "فالإسترجاع هو أن يترك الراوي الزمن الذي وصلت إليه الأحداث ليعود إلى الزمن الماضي القريب، أو البعيد، لإستحضار أحداث فائتة " (36).

وتكمن أهمية الإرتداد أو الإسترجاع كونها عملية أو تقنية، تتمحور، حول تجربة الذات، وتعادل وفقا للمصطلح النفسي ما يسمى " بالإستبطان " أو التأمل الباطني و يعرف بأنه : " معاينة المرء لعملياته العقلية، حيث يقوم الإنسان بفحص أفكاره، ودوافعه، ومشاعره، والتأمل فيها، أشبه ما يكون ذلك بتحليل الذات والتأمل في الخبرات الماضية...لأن عملية الإستبطان تتم في أعقاب حالة الخبرة والمعايشة، وبعد استقرار عناصرها في الذاكرة (37).

وقد أكثرت الكاتبة رضوى عاشور من توظيف هذه التقنية بشكل بارز في "الطنطورية " وربما أرادت من خلال الإسترجاع سحب

تأويل أو دلالة لإعادة صياغتها في تفسير الحاضر الجديد تلبية لبواعث فنية، وجمالية خالصة في النص الروائي (38).

وكمثال نتوقف عند الفصل الثاني من الرواية " عامورة الليل " الذي يفتح بإسترجاع "رقية " لوالدتها وما قالتها وما لم تقله عن زوجها من ابن عين غزال الذي سيسكن في حيفا " ...أتخيل أمي في تلك الأيام . أستعيد ماقلتة وما لم تقله، أسمعها وهي تكرر على جارة من الجارات، ما سبق أن قالتة لخالاتي، قلت له : تغرب ابنتك في حيفا، يا أبو صادق ؟ قال : اركبي القطار . سبحان الله، أسافر من بلد إلى بلد لأرى ابنتي ؟ وماذا لو جاءها المخاض في نصف الليل ؟ وماذا لو أصابها لقدر الله مرض؟..."(39).

ويكشف هذا الإسترجاع عن سد لكثير من الثغرات التي قد يطرحها السرد الحاضر، لكن الحقيقة أن العودة إلى الماضي في الرواية قد ساهم في تفسير دلالة الأحداث الحاضرة، وقدمت لنا الكاتبة من خلاله شخصيات عديدة، مثل : أبو محمد، زينب، يحي، العم أبو أمين، الصادق ...

جاء هذا الإسترجاع بضمير المتكلم سواء ما تعلق بالشخصية التي تسرد أحداث ماضيها أو ماضي الشخصيات الأخرى، فغالبا ما يكشف لنا عن حاضر الشخصية في بعدها الفكري، الذي عمق فهمنا لحاضرها، الذي هو امتداد لماضيها، ومدى التحول الطارئ عليها، كوض"وصال " في مخيم (جنين) ووضع " الصادق " و " حسن " في (مصر)، وما لجوء الكاتبة إلى هذه التقنية إلا لإضاءة جوانب من الشخصية الماضية، التي لم يكن في وسع زمن الحاضر كشفها (40).كقول الراوي : "...تقول أمي الحمد لله أن الصادق وحسن هربا إلى مصر، عندما تهدأ الأمور يعودان بالسلامة، وفي صيدا بعد عام، من رحيلنا، كانت تلح على عمي أن يسافر إلى مصر ليعلمهما أننا نعيش في صيدا، تقول : مساكين لا بد أن القلق أكل قلوبهما علينا، ونحن نعيش هنا في خير وأمان..."(41).

وتتجح الرواية في ربط مقاطع الإستذكار مع نسيج الرواية، عندما يدعوها الحاضر إلى إسترجاع الماضي، الذي يتم عبر ذاكرة "

واضحة وصحيحة، وفي هذا يقول " باشلار": "... أن الذكرى لا تعلم دون استناد جدلي إلى الحاضر، فالذكرى تعيد وضع الفراغ، في الأزمنة غير الفاعلة، إننا حين نتذكر، بلا انقطاع، إنما نخلط الزمان غير المجدي، وغير انفعال بالزمن الذي أفاد وأعطى..." (47).

2 - الإستباق : هو مفارقة زمنية سردية تتجه إلى الأمام، بعكس الإسترجاع، والإستباق تصوير مستقبلي لحدث سردي سيأتي مفصلا فيما بعد .

إذ يقوم الراوي بإستباق الحدث الرئيسي في السرد، بأحداث أولية تمهد للآتي وتومئ للقارئ بالتنبؤ واستشراف ما يمكن حدوثه، أو يشير الراوي بإشارة زمنية أولية تعلن صراحة عن حدث ما سوف يقع في السرد .

يعرف الإستباق على أنه مفارقة تتجه إلى المستقبل بالنسبة إلى اللحظة الراهنة، أو إلماح إلى واقعة أو أكثر ستحدث بعد اللحظة الراهنة (48).

إن الإستباق هو حالة توقع وانتظار يعيشها القارئ أثناء قراءة النص، بما يتوفر لها من إحدات إشارات أولية توحى بالآتي، ولا تكتمل الرؤية إلا بعد اللإنتهاء من القراءة . إذ يستطيع القارئ تحديد الإستباقات النصية والحكم من تحققها أو عدمها .

وقد تحقق الإستباق في الرواية عندما ألمحت الكاتبة لمصير شخصية " يحي " و " رقية " في قولها : "...سيتم دراسته قبل أن يدخل بها...مادام الشاب يتعلم في الجامعة فلن يشتغل لا بالصيد ولا بالفلاحة، ولن يقيم في بلدنا أو في عين غزال..." (49).

تعمل الإستباقات في رواية " الطنطورية " بمثابة تمهيد لما سيأتي من أحداث رئيسية " ...لا حقا سوف أعرف أن أغلب نساء المخيم يحملن مفاتيح دورهن، تماما كما كانت تفعل أمي، البعض كان يريه لي، وهو يحكي عن القرية التي جاء منها وأحيانا كنت ألمح طرف الحبل الذي يحيط بالرقبة وإن لم أر المفتاح، وأحيانا لا ألمحه، ولا تشير إليه السيدة، ولكنني أعرف أنه هناك تحت الثوب..." (50).

تخلق الروائية لدى القارئ حالة توقع وانتظار وترقب لما سيأتي، وتعد مشاركة القارئ في النص من أبرز وظائف الإستباق(51)، إذ يوجه انتباهه لمتابعة تطور الشخصية والحدث، من خلال الإستباقات، كما يساهم في بناء النص، من خلال التأويلات والإجابة على التساؤلات التي يطرحها، ثم ماذا بعد ؟ ولماذا حدث ؟ مثل قول الراوي : "...سأكتشف لاحقا أن الحدس كان دقيقا، وأن فاطمة الصغيرة العذبة، امرأة مدهشة في قوتها قادرة بلا جلبة أن تحب حسن، وأن تثبت قدميه في الأرض وتحميه، كأنها ذنبة أو كلب حراسة أو ملاك..."(52).

إن الإنبياء بمستقبل حدث ما من خلال الإشارات أو الإيماءات والرموز الأولية، تمنح القارئ احساسا بأن ما يحدث في داخل النص من حياة وحركة، وعلاقات، لا يخضع للصدفة، ولا يتم بصورة عرضية (53).

وإذا ذهبنا إلى استباق زمني آخر في رواية " الطنطورية " ستظهر لنا إشارات استعملتها الساردة، كأداة تمهيدية للحكي مثل قولها : "...ستحكي لنا وصال مطولا عن الإنتفاضة، حين سألها الصادق قالت : شو بدي أحكي تأحكي ؟ ثم إنكم تتابعون الأخبار أكثر مني في جنين، لا نرى في التلفزيون إلا محطة عمان ومحطة إسرائيل، وأنتم تلتفزيونكم ما شاء الله فيه محطات الدنيا كلها..."(54).

وقد ولدت هذه الإستباقات، حالة ترقب وتشويش، على ما سيأتي ذكره من أحداث، كما في النموذج السردى التالي : "...عمي سيحكي لي لاحقا كأنني لم أشهد، يحكيها بكل تفاصيلها، بهدوء أحيانا، وأحيانا باضطراب، وقبل موته بيومين سيناديني ويحكيها لي بتفاصيلها كأنه لم يسبقه له حكايتها لي عشر مرات..."(55).

والحقيقة أن مثل هذه الإستباقات قد ساهمت في خلق نوع من التوقع والتنبؤ، والتشويق، في مستقبل الحدث والشخصية، ورغم أننا نحس أن الأحداث في الرواية تقوم على عنصر الصدفة، إلا أن ورود مثل هذه الإيماءات المستقبلية قد يؤدي بالقارئ لفكرة الإقتناع بقيام النص على مخطط معين، يهدف إلى غاية معينة، وتبقى هناك مسألة

مهمة تجب الإشارة إليها وهي أن الإستباق أقل ظهورا من الإسترجاع في النص (56).

وهكذا فإن نص رضوى عاشور متكسر ومتشظي، ف "رقية" الكاتبة الضمنية تترك لذاكرتها التداعي والانتقال بين الماضي والحاضر، وحتى المستقبل دون أي قيود، فيحضر التاريخ، بإسترجاع الماضي ويحضر الحاضر بما يحدث الآن، والمستقبل بالإستباقات الزمنية، وهو ما ساعد رضوى عاشور على تغطية مساحة زمنية واسعة من جدا، وخاصة من خلال الإسترجاع، لأن الإسترجاع هو أدواتها السردية، لإعادة خلق ما يحويه المشروع الإستيطاني البغيض من الذاكرة، لتثبيته في وعي الرواية ووعي القارئ معا، فالرواية هي رواية تذكر و إسترجاع، فرضوى عاشور لا تحكي سيرة " رقية " فحسب بل تحقق بالسرد نصرا مبينا، فتحسم صراعا على أرض النص وفضائه، رواية تساعدنا على الإكتشاف وتعرفنا تاريخنا، ومن نحن وماذا نريد، لأننا عندما نعرف نستطيع، هي رواية عن فلسطين ..قراها، تاريخها، عذابات أهلها، وصمودهم، ومآثراتها الشعبية، لغتها، أغانيها وأهازيجها، أشجارها، وزرعها ومحاصيلها، ورموزها وما جرى لأهلها الذين أجبرو على النزوح منها بالعسف والبطش والتطهير العرقي والتقتيل .

وفي الأخير يتأكد لنا أن الزمن في أيدي الروائيين أداة فنية فاعلة و وسيلة تعبيرية، لا مجال للإستغناء عنها، شأنه في اهتمامهم وعنايتهم به فيما يبدعون، كشأن غيره من مكونات السرد الأخرى " ..فمن الشائع لدى الكتاب الروائيين إقبالهم على تحديد الزمن في روايتهم ... " (57). وما لا بد أن يعيه هؤلاء المبدعون أن ليس ثمة شيئا أكثر صعوبة يجب تأمينه في الرواية من عرض الزمن في صيغة تسمح بتعيين مداه، وتحديد الوتيرة التي يقتضيها والرجوع بها إلى صلب القصة (58). وهو ما يدل على حنكة الكاتب، وعلى قدرته في استعمال عنصر الزمن للنيل من إعجاب المتلقي، وهذا ما لمسناه في نص رضوى عاشور، من حيث تمثل تقنية التوجيه السردية نمودجا مثاليا ثقيلًا، لإصرار الكاتبة على العيش رفة روايتها وقرائها بعد ذلك في زمن آخر غير الزمن

الراهن، فكل مفارقة كانت تشتغل، داخل الرواية بهدف واحد هو تقديم المحكي في قالب متماسك (59)، ينأى عن الإضطراب والإختلال في ظل زمن يتماهى في نسيجه مع الزمن الإنساني .

هوامش وإحالات :

- 1- د . الأخضر بن السائح، سرد المرأة وفعل الكتابة، دراسة نقدية في السرد وآليات البناء، دار التنوير، الجزائر، ط1 2012 ص 12.
- 2- المرجع نفسه ص 14 .
- 3- نبيل سليمان، المساهمة الروائية للكاتبة العربية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2013 ص 09.
- 4- رضوى عاشور كاتبة مصرية وأستاذة جامعية، يتوزع إنتاجها بين الرواية والقصة القصيرة والنقد الأدبي والثقافي، ولدت في القاهرة عام 1946، تحصلت على الدكتوراه من جامعة ماساشوستس بالولايات المتحدة عام 1975.
- 5- عبير حسن علام، شعرية السرد وسيميائياته، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، 2012، ص 183.
- 6- صبحي الطعان، بنية النص الكبرى، مجلة عالم الفكر، ج23، الكويت، 1994، ص 445.
- 7- " الطنطورية "نسبة إلى قرية الطنطورة الواقعة على الساحل الفلسطيني، جنوب حيفا، تعرضت هذه القرية عام 1948 لمذبحة على يد العصابات الصهيونية.
- 8- رضوى عاشور، الطنطورية، دار الشروق، ط2013، ص 5، ص 240.
- 9- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، ط 2005، ص 4، ص 89.
- 10- المرجع نفسه ص 90.
- 11- تزيفتانتودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، سلسلة المعرفة الأدبية، المغرب، ط2، 1990، ص 47.
- 12- مجموعة مؤلفين، معجم السرديات، إشراف محمد القاضي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط2010، ص 1، ص 231.
- 13- المرجع نفسه، ص 237.

- 14- محمد عزام، فضاء النص الروائي، دار الحوار للنشر، سوريا ط1996، ص1، ص124.
- 15- جبرار جينات، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة محمد المعتصم وعبد الجليل الأزدي، المملكة المغربية ط1، 1996 ص45.
- 16- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص89.
- 17- سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 2004، ص48.
- 18- رضوى عاشور، الطنطورية، مصدر سابق، ص206-207.
- 19- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2001، ص2، ص47.
- 20- رضوى عاشور، الطنطورية، ص7.
- 21 -، شهرزاد حرز الله، الفن الروائي عند أحلام مستغانمي، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط1، 2010 ص188
- 22- رضوى عاشور، الطنطورية، ص335.
- 23-المصدر نفسه ص85.
- 24 - عبد الجليل مرتاض، البنية الزمنية في القص الروائي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1993، ص31
- 25- رضوى عاشور، الطنطورية، ص68.
- 26- عبد الملك مرتاض، نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ع240، الكويت 1990، ص210.
- 27- رضوى عاشور، الطنطورية، ص219.
- 28- المصدر نفسه ص393.
- 29 - مراد عبد الرحمن مبروك، بناء الزمن في الرواية العربية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص102
- 30- رضوى عاشور، الطنطورية، ص24.
- 31- المصدر نفسه ص57.
- 32 - سيزا قاسم، بناء الرواية، مرجع سابق، ص67
- 33- رضوى عاشور، الطنطورية، ص19 .

- 34- المصدر نفسه ص 21 .
- 35- جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة عابد خزندار، مراجعة وتقديم محمد بريري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2003، 1، ص 25.
- 36- كمال رياحي، حركة السرد الروائي ومناخاته (في استراتيجية التشكيل)، دار المجدلأوي، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص111.
- 37- مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للنشر، ط1، 2004، ص 192.
- 38- حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية، المركز الثقافي العربي، ط2، 2009، ص 151.
- 39- رضوى عاشور، الطنطورية، ص15.
- 40- شهرزاد حرز الله، الفن الروائي عند أحلام مستغانمي، مرجع سابق، ص 193.
- 41- رضوى عاشور، الطنطورية، ص 63.
- 42- المصدر نفسه ص 39.
- 43- سيزا قاسم، بناء الرواية ص 43.
- 44- رضوى عاشور، الطنطورية، ص 17.
- 45- سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص83.
- 46- رضوى عاشور، الطنطورية، ص 255.
- 47- غاستونبانشلار، جدلية الزمن، ترجمة، خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1982، ص 47.
- 48- جيرالد برنس، المصطلح السردي، مرجع سابق ص 186.
- 49- رضوى عاشور، الطنطورية، ص 12.
- 50- المصدر نفسه، ص 93.

- 51- إبراهيم نمر موسى، جماليات التشكيل الزماني والمكاني، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج 2، ع 2، القاهرة، 1993، ص 312
- 52- رضوى عاشور، الطنطورية، ص 312.
- 53- عالية محمود صالح، البناء السردي في روايات إلياس خوري، دار الأزمنة، عمان، الأردن، ط 1، 2005، ص 35.
- 54- رضوى عاشور، الطنطورية، ص 324.
- 55- المصدر نفسه ص 46.
- 56- شهرزاد حرز الله، الفن الروائي عند أحلام مستغانمي، مرجع سابق، ص 195.
- 57- إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف، ط 1، الجزائر، 2010، ص 97.
- 58- حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص 108.
- 59- يوري لوتمان، تاريخ الزمان، فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة، فؤاد كامل، سلسلة عالم المعرفة، وزارة الثقافة والإعلام، الكويت، عدد 159، 1992، ص 14.